المكتبخانات

وهي لفظة ارسلها الينا المستشرق الفاضل مرتين هرتمن

كنشلبار فضل المانية سابقاً في بيروت وسلّم اللغات الشرقية حالاً في برلين

انَّ صناعة الطبع حديثة في بلاد المشرق ولا سيَّما في سوريَّة ومع ذلك قد اتت في الازمنة الاخيرة بما لا يحصى من بنات الفكر المُظهَرة من عالم الغيب الى عالم الوجود بواسطة تلك الهنات السوداء التي تُسكب حروفاً ثم تُرتَّب صفوفاً ثم تُتمَّن بالمداد فتزين (ويا ليتها لا تشين) الصَّفحات. ولا يُخفى ما في المطبوعات من الدلائل على ما يشغل ضمير القوم. فترى كلَّ من عنَّ لهُ امرٌ او خطرت على بالهِ غاية من اي جنس كانت يقصد « تعميم فائدتها » فيعمد الى نشرها بلسان ذلك الفنّ العجيب. لحقًّا انَّ صناعة الطبع لوسيلةٌ كبرى نبلغ بها عدداً غفيراً من البشر ما نوينا اذاعتهُ على رأس الملإ. ولذلك لم تلبث الحكومات نفسها التي في اوَّل الامر توهَّمت في هذا الفنّ خطرًا وخشيت منهُ اضطراب الافكار ان تتخذ الطباعة كواسطة لتنفيذ مآربها. وكيفما كان الامر فلا يخفى على كل ذي بصر ما في هذه الصناعة من الخطارة العظمى

هذا وانَّ في محصولات صناعة الطبع اختلافاً من حيث الحجم والفائدة وليس هذان الامران واحداً فانك ربَّما قرأتَ تأليفاً مطوَّلاً ذا صفحات عديدة لا تكاد تجتني منهُ ثمرة وليس هو الَّا تكرار ما سبق طبعهُ. وقد ترى بخلاف ذلك الورقة والورقتين فاذا طالعتهما حصلت على ما لا يُنال بقراءة المجلَّدات الضخمة لما تجد في هذه الصفحات الوجيزة من المعاني المبتكرة والخواطر السنيَّة التي تشحذ الاذهان وتنير البصائر

وعلى كلّ الاحوال لا بُدَّ من جمع كلّ ما يُطبع في بلدٍ ما فيودع في محلّ معلوم اي في مكتبة بها تُصان كلّ ما يُنشر من المطبوعات على اختلاف حجمها واهمّيتها. وكثيرًا ما ظنَّ المعاصرون انَّهُ ليس كبير امر في بعض التآليف فينبذونها واذا اتى رجال العصر القادم لعلّهم يجدون فيها من الاهمية ما لم يَدُر على خلدٍ

وهنا لا يسعنا الَّا الثناء الطيّب على الحكومة المصريَّة التي تنفق لجمع المطبوعات مبالغ وافرة وعيَّنت لادارة مكتبتها الكبرى المعروفة « بالكتبخانة الخديوية » أئمَّة لهم الباع

الطويل في فنّ تدبير المكاتب. وهو فنّ جليل لهُ اعتبار عظيم في بلاد اوربّة ولاربابهِ جرائد ومجلاّت مخصوصة تفيدهم عن كلّ امور المطبوعات وشؤون المكاتب

وكنّا نودّ لو نسمع انّ في الاستانة العلية مكتبةً عمومية مرتبة ترتيباً علميا تجمع مع المخطوطات القديمة جُلّ ما طُبع في الآداب والفنون لا تقتصر فقط على العلوم الدينية كما ترى عدّة مكاتب خصوصية بالاستانة

ثم انّ الدول الاوربية لها قاعدة تُذكر فتشكر وهي انّها لا تكتفي بانشاء مكتبة عمومية في عواصمها بل تعتني باقامة خزانة فكتب في كلّ من ولاياتها. وعليهِ يقتضي ايضاً في الشرق ان تُنشأ مكتبة في كلّ مركز ولاية او لواء مستقلّ واذا تعذّر ذلك على اهل الامر ينبغي ان يُحثّ الاهلون على إحداث مكتبةٍ ويُحمَلون على مساعدة هذا المشروع مساعدةً ماليّة. امّا مكتبة العاصمة فاوّل ما يتحتّم عليها ان تستحضر كلّ ما يعود بالنفع على الجمهور من المطبوعات المفيدة في كلّ فنٍ ثم ان تجمع ما يُطبع في الولايات فتكون هذه المكتبة المركزية مرآةً جليّة لحركة الادبية في البلاد اجمعها

امّا مكاتب الولايات فلا يطلب منها ان تجمع تآليف شاملة لكلّ الفنون فحسبها الاهم منها بيد انّهُ ينبغي عليها ان تُحرز في خزائنها كلّ ما طُبع في انحاء الولاية وما تتعلق بشؤونها الخاصّة

ومن المعلوم انّ جميع مدن اوربّة تفرض على كلّ صاحب مطبعة ان يقدّم نسختين من كلّ ما ينشرهُ بالطبع لا يُستثنى من هذا الحكم سوى الاوراق الشخصية فترسل احدى النسختين الى مكتبة العاصمة والثانية الى كتبخانة الولاية. ولا شطط في هذا المطلوب وهو امرٌ زهيد لا يبخس حقوق المؤلف او صاحب المطبعة فضلاً عمّا يكتسب الكتاب بذلك من الشهرة

وتزيد على ما سبق انّهُ ولو كان الامل الوطيد بان الدولة السنية تقوم بالمشروع الذي نحن بصددهِ فشيءٌ ما لزم انشاؤهُ من الكتبخانات في العاصمة ومراكز الولايات فمع ذلك الأحرى الّا ينتظر الاهلون عمل الحكومة بل يشمّروا باقسهم عن ساعد الجدّ ويبرزوا الامر من القوّة الى الفعل على قدر طاقتهم ولو بقي دون المطلوب مُراعين بذلك المثل القائل: ان لم تقدر على كلّهِ فلا تترك جلّهُ

وان سألت تُرى من يستطيع القيام بهذا المشروع من الخواصّ اجبتُ ان المرجع

في ذلك الى الجمعيات العلمية التي لا بدَّ من تشكيلها في بلادٍ تغصُّ بقوم الفضلاء ذوي الاذهان الجيدة والقرائح الحسنة القابلة لكل عمل شريف. ويكفي ما صرَّح به الاب الفاضل هنري لامنس في نبذته «هيَّا على درس تاريخنا» في العدد السادس من هذه المجلة (ص ٢٦١ الى ٢٦٤) من وجوب اقامة جمعيَّات علمية تبحث عن تاريخ البلاد وعوائدها وآدابها وما يؤول الى معرفة احوالها دينًا ودنيا. وقد ذكر الاب المومأ اليه في المادَّة التاسعة امر انشاء المكاتب في كلّ جمعيَّة. ونستحسن كلّ ما ذكرهُ بهذا الشأن

الَّا اننا نحبُّ ان نستلفت نظر القرَّاء الى مسألةٍ لها اهميَّة عظيمة في اعيننا وفي اعين من تتبَّع الابحاث التاريخية ولا سيَّما ما تعلَّق منها باحوال الامم غير السياسية. وذلك ان تُجمع في المكاتب الاوراق المنثورة والكراريس الصغيرة الحجم التي يغلب عليها رداءة الطبع ورداءة جنس الورق واكثرها بائعة العامَّة يدخلها المخن والكلام المبتذل. فانَّ في هذه الجاميع لفائدةً كبيرة ألا ومنها تُعرف حقيقةً احوال العامَّة وما تكنُّهُ صدورهم من الافكار والاوهام التي كانت اصل تلك الحركات القويَّة المؤدِّية الى ما ادهش العالم من الانقلابات السياسية وربَّما غاب عن العقلاء مصدر هذه الحركات ولو فطنوا لوجدوا انَّ سببها ما انتشر بين ايدي القوم وطبقات الشعب السُّفلى من الكلام المنثور او المنظوم فاثار الاهواء وحرَّك الضغائن

ومثل ذلك ما يُطبع من المقاطيع المبيِّنة لعوائد البلاد كما ترى ذلك خصوصًا في القطر المصري فانَّهم كثيرًا ما ينظمون الازجال يهجون بها من اعتاد السيئات ويرشقون بها المسرفين في بذل المال في سبيل المنكر وغيرهم بخلاف الامر يثنون على هذه العادات القبيحة ويبالغون في التغزليَّات الى غير ذلك من الاقوال الشائعة بين العامَّة المصوِّرة لاحوالهم المبيِّنة لصفاتهم. وزد على ذلك ما تحتويه هذه المطبوعات المخونة من الاشارة الى لهجة العامَّة وفي ذلك منافع جمَّة للابحاث اللغويَّة. وسنفرد لهذا المبحث نبذةً فيما بعد ان شاء الله نبيِّن فيها ما قرَّرتهُ الدول الاوربية لجمع اللهجات المختلفة في كلّ ولاية وما افضى اليه ذلك من النتائج العلمية المهمَّة. ولسوء الحظّ قلَّ من يعرف في الشرق قيمة تلك الاوراق والكراريس الحقيرة الَّا اننا لا نشكُّ انَّ هذه الاشارة تكفي لقرَّاء المجلَّة واللبيب بالاشارة يفهم